تُحفة الأكياس في عِزَّة النَّفْسِ وَالإسْتِغْنَاء عَنِ النَّاسِ

2022-09-02

الحمد لله العزيزِ الحميد، الفعَّالِ لِمَا يريدُ. الملكِ الحقِّ القويِّ، يهدي من يشاءُ إلى المنهجِ القويمِ والصِّراطِ السويِّ، فسبحانه من إله جَعَلَ اليَقِينَ مِنْ صِفاتِ عِبادِهِ المُؤمِنينَ، والثِّقَةَ بهِ مِنْ شَمائِلِ أَوليائهِ المُتَّقِينَ، القائل في كتابه المكنون:((وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)). وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له. جعل السعادة في الداريْن لمن سلك سبيل الهداية، وقضى بالذلّة والشقاء على مَن عدل عن طريق الرشد إلى الغواية، فنعوذ بنور وجهه الكريم من جَهْد البلاء. ودَرْك الشقاء. وعُضال الداء. وشماتة الأعداء. ونسأله تعالى عيْش السعداء. وموت الشهداء. والفوز في القضاء. وأن يسلك بنا طريق الأولياء الأصفياء. وأشهد أنّ سيّدنا محمداً عبده ورسوله. وصفيّه من خلقه وخليله. أَرْأَفُ الْأُمَّةِ بِالْأُمَّةِ، وَأَنْصَحُهُمْ لَهَا، وَأَصْدَقُهُمْ مَعَهَا، وَأَعْلَمُهُمْ بِمَا يُصْلِحُهَا، لَا خَيرَ إِلَّا دَلَّ عَلَيهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَ مِنْهُ، علّم أمّته معاني الهمّة والعزيمة، وغرس فيهم قوّة الإرادة والشكيمة، ونفّرهم من صُوَر الإستكانة والهزيمة،

هذا محمّدُنا للحقّ أرشَدَنا * ومِنْ بحار الرَّدَى والهُلْكِ أنقذنا
هذا الذي جاء بالحقّ الْمُبِينِ لنا * وأذهب الشِّرْك بالآيات والحُجَجِ
صلّوا على المصطفى ذي الْمَنْظَرِ البَهِجِ

اللهم صلِّ وسلِّم وبارِك على سيِّدِنا محمّد. النبي الكريم. وعلى آله ذوي المجادة والتعظيم. وصحابته أهل السيادة والتكريم. صلاة تفتح لنا بها خزائن جودك العميم. وتقدّس بها أرواحنا في حظائر القدس وفراديس النعيم. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. إِنَّ الْإِنْسَانَ يَسْعَى دَائِمًا إِلَى كَمَالِ نَفْسِهِ، وَيَحْرِصُ كَثِيرًا عَلَى سَدِّ نَقْصِهِ، وَذَلِكَ بِالِاتِّصَافِ بِالْأَخْلَاقِ النَّبِيلَةِ، وَالْحِرْصِ عَلَى الْقِيَمِ

الرَّفِيعَةِ الْجَلِيلَةِ. وَإِنَّ مِنْ كَمَالِ الْأَخْلَاقِ، وَرَفِيعِ الْقِيَمِ وَالْآدَابِ؛ خُلُقَ الْعِفَّةِ وَالإِسْتِغْنَاءِ عَنِ النَّاسِ؛ فَبِهِ تُصَانُ الْوُجُوهُ، وَبِسَبَبِهِ تَعْتَزُّ النُّفُوسُ؛ إِذْ يَقْوَى بِهِ التَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ، وَبِسَبَبِهِ يَصْدُقُ الإِلْتِجَاءُ إِلَى اللهِ؛ قال تعالى في سورة الذاريات:((فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ))، وقال سبحانه في سورة الفرقان:((وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ)). وأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ مِنْ حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه قال:((جَاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ، وَأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ الْمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ، وَعِزَّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ)). وهذه صفات للمؤمنين حقًّا. الذين يتزيّنون دائماً ويعتزّون بزينة التعفّف والقناعة، والرضا بقدر الله، أولئك لا يَذِلّون لأحدٍ إلاّ إلى الله. قال تعالى في سورة البقرة:((لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلونَ النَّاسَ إِلْحَافاً)). أيّها المسلمون. لِنَعْلَمْ أَنَّ عِزَّةَ النَّفْسِ تُبْعِدُ الْإِنْسَانَ عَنْ كُلِّ مَنْ يُحَاوِلُ أَنْ يُقَلِّلَ مِنْ قِيمَتِهِ، وَأَنَّ الإِسْتِغْنَاءَ عَنِ النَّاسِ يَجْعَلُهُ رَفِيعَ الْقَدْرِ عَنْ كُلِّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَنَالَ مِنْ مَنْزِلَتِهِ. فَلَا يَزَالُ الْإِنْسَانُ عَزِيزًا وَافِرَ الْقَدْرِ مَا دَامَ مُسْتَغْنِيًا عَنِ النَّاسِ، وَمَا يَزَالُ عَزِيزًا رَفِيعًا مَا دَامَ غَيْرَ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِمْ إِلَّا مِمَّا لَا بُدَّ مِنْهُ، وَمَتَى مَا سَأَلَ النَّاسَ لِنَفْسِهِ شَيْئًا، وَأَكْثَرَ مِنْ مَسْأَلَتِهِمْ بِطَلَبِ الْإِعَانَةِ مِنْهُمْ فَقَدْ هَانَ عَلَيْهِمْ، وَقَلَّ قَدْرُهُ عِنْدَهُمْ ؛ وَأَصْبَحَ أَسِيرًا لِمَعْرُوفِهِمْ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ بِطَبْعِهِ يَأْسِرُهُ الْإِحْسَانُ، وَيُقَيِّدُهُ الْمَعْرُوفُ. وإنّ الوصول إلى مرحلة التعفّف وعزّة النفس أمرٌ يحتاج إلى رصيدٍ كبيرٍ من الصبر والتجمّل والتحمّل لكل الظروف القاسية. دون ضراعةٍ لأحدٍ إلا الله، وهكذا كان خيار خَلْق الله بعد أنبيائه. كانوا على هذه الشاكلة؛ كانوا يعلمون أنّ عزة النفس لا يمكن أن تكون إلا بالتعفّف عمّا في أيدي الناس، والتعفّف عن الحاجة لهم. كما جاء في الحديث الشريف. ((وَاعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ الْمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ، وَعِزَّهُ

اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ)). لِذَا أَوْصَى رَسُولُنَا الْكَرِيمُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالإسْتِغْنَاءِ عَنِ النَّاسِ، وَحَثَّ عَلَى عِزَّةِ النَّفْسِ وَتَرَفُّعِهَا عَنِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِمْ، وَقَدْ رَبَّى صَحَابَتَهُ عَلَى ذَلِكَ، وَبَايَعَهُمْ عَلَيْهِ؛ فَقد أَخْرَجَ الإمام مُسْلِمٌ في صحيحه عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:((كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً أَوْ سَبْعَةً؛ فَقَالَ: أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟. وَكُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِبَيْعَةٍ. فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. ثُمَّ قَالَ: أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟. فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. ثُمَّ قَالَ: أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟. قَالَ: فَبَسَطْنَا أَيْدِيَنَا وَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَعَلَى مَا نُبَايِعُكَ؟. قَالَ: عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَتُطِيعُوا وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا. فَلَقَدْ كَانَ بَعْضُ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ)). أيّها المسلمون. إِنَّ صُوَرَ عِزَّةِ النَّفْسِ كَثِيرَةٌ، وَأَنْوَاعَ الإسْتِغْنَاءِ عَنِ النَّاسِ مُتَعَدِّدَةٌ، فَمِنْ ذَلِكَ: الصَّبْرُ عَلَى قِلَّةِ ذَاتِ الْيَدِ، وَالتَّصَبُّرُ عَلَى الْفَقْرِ وَالْعَوَزِ؛ وَفِي الْحَدِيثِ الذي أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال:((إِنَّ نَاسًا مِنَ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ، فَأَعْطَاهُمْ. حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ)).
أَمَّا مَنْ سَأَلَ النَّاسَ تَكَثُّرًا، وَمَدَّ إِلَيْهِمْ يَدَهُ كَذِبًا وَزُورًا؛ فَالْوَعِيدُ فِي حَقِّهِ كَبِيرٌ، وَالْإِثْمُ وَالْجَزَاءُ فِي عَمَلِهِ خَطِيرٌ؛ فَفي الحديث الْمُتَّفَق عَلَيْهِ. عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:((لَا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقَى اللهَ تَعَالَى وَلَيْسَ في وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ)).
وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ في صحيحه عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:((مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكَثُّرًا فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا؛ فَلْيَسْتَقِلَّ مِنْهُ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ)). فَالتَّعَفُّفُ عَنْ مَسْأَلَةِ النَّاسِ، وَقَطْعُ

الطَّمَعِ فِي أَمْوَالِهِمْ مَطْلَبٌ شَرَعِيٌّ، وَمَقْصِدٌ دِينِيٌّ؛ فَأَمْوَالُ الصَّدَقَاتِ وَالزَّكَوَاتِ إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ؛ كَمَا قَالَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَلْ قَدْ يَكُونُ هَذَا الإِسْتِغْنَاءُ وَاجِبًا لِمَنْ كَانَ قَوِيًّا فِي بَدَنِهِ، مُسْتَطِيعاً فِي كَسْبِهِ؛ أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ الْخِيَارِ قَالَ:((أَخْبَرَنِي رَجُلَانِ أَنَّهُمَا أَتَيَا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَهُوَ يُقَسِّمُ الصَّدَقَةَ، فَسَأَلَاهُ مِنْهَا، فَرَفَعَ فِينَا الْبَصَرَ وَخَفَضَهُ، فَرَآنَا جَلْدَيْنِ فَقَالَ: إِنْ شِئْتُمَا أَعْطَيْتُكُمَا، وَلَا حَظَّ فِيهَا لِغَنِيٍّ وَلَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ)). أيّها المسلمون. إِنَّ أُجُورَ التَّعَلُّقِ بِاللهِ كَبِيرَةٌ، وَثَمَرَاتِ الإِسْتِغْنَاءِ عَنِ النَّاسِ كَثِيرَةٌ، فَمِنْ ذَلِكَ: الْكِفَايَةُ بِاللهِ وَالْوِقَايَةُ مِنْهُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ يُهِمُّهُ. كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ في سورة الطلاق:((وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)). وَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:((مَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِاللَّهِ، فَيُوشِكُ اللَّهُ لَهُ بِرِزْقٍ، عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ)). وَمِنْ ثَمَرَاتِ التَّعَلُّقِ بِاللهِ وَالإِسْتِغْنَاءِ عَنِ النَّاسِ: نَيْلُ مَحَبَّةِ اللهِ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحَدِيثِ الذي أَخْرَجَهُ الْبَزَّارُ عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال:((إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُحِبُّ الْغَنِيَّ الْحَلِيمَ الْمُتَعَفِّفَ، وَيُبْغِضُ الْبَذِيءَ الْفَاجِرَ السَّائِلَ الْمُلِحَّ)). وَمِنْ ثَمَرَاتِ التَّعَلُّقِ بِاللهِ وَالإِسْتِغْنَاءِ عَنِ النَّاسِ: دُخُولُ الْجَنَّةِ؛ فَقَدْ ثَبَتَ فِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ عَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:((مَنْ يَضْمَنُ لِي وَاحِدَةً وَأَضْمَنُ لَهُ الْجَنَّةَ؟. قَالَ: قُلْتُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: لَا تَسْأَلِ النَّاسَ شَيْئًا. قَالَ: فَكَانَ سَوْطُ ثَوْبَانَ سَقَطَ وَهُوَ عَلَى بَعِيرِهِ، فَيُنِيخُ حَتَّى يَأْخُذَهُ، وَمَا يَقُولُ لِأَحَدٍ: نَاوِلْنِيهِ)). أيّها المسلمون. بِمَا أَنَّ عِزَّةَ النَّفْسِ وَالإِسْتِغْنَاءَ عَنِ النَّاسِ مَنْقَبَةٌ عَظِيمَةٌ، وَخَلَّةٌ حَمِيدَةٌ، فَهُنَاكَ خُلُقٌ ذَمِيمٌ، وَظَاهِرَةٌ سَيِّئَةٌ، وَهِيَ ظَاهِرَةُ التَّسَوُّلِ، فَبِجَانِبِ مَنْعِهَا شرعا لَمْ تَعُدْ قَاصِرَةً عَلَى الْفُقَرَاءِ غَيْرِ الْقَادِرِينَ عَلَى الْكَسْبِ وَالْعَمَلِ، وَلَكِنَّنَا وَجَدْنَا بَعْضَ

الْقَادِرِينَ عَلَى الْعَمَلِ مِنْ مَعْدُومِي الْمُرُوءَةِ الَّذِينَ اسْتَسْهَلُوا التَّسَوُّلَ وَاسْتَغَلُّوا عَطْفَ النَّاسِ وَبَحْثَهُمْ عَنِ الْأَجْرِ والثواب، فَمَدُّوا أَيْدِيَهُمْ، وَتَمَسْكَنُوا فِي طَلَبِهِمْ، فَتَجِدُهُمْ فِي الطُّرُقَاتِ وَفِي الْأَسْوَاقِ وَعَلَى أَبْوَابِ الْمَسَاجِدِ، فَيَجِبُ الْأَخْذُ عَلَى أَيْدِيهِمْ، وَعَدَمُ التَّصَدُّقِ عَلَيْهِمْ، فَالْعَمَلُ الْخَيْرِيُّ فِي بَلَدِنَا مُنَظَّمٌ، وَلَهُ طُرُقُهُ وَوَسَائِلُهُ الْمَعْرُوفَةُ. فَلْنَسْتَغْنِ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ عَنِ النَّاسِ مَا اسْتَطَعْنَا، وَلْنَجْتَهِدْ فِي أَدَاءِ حَاجَاتِنَا بِأَنْفُسِنَا. نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من أهل العزّة والكرامة في الدنيا والآخرة، اللهم أعزّنا بطاعتك ولا تذلّنا بمعصيتك، اللهم ارزقنا إيمانًا يباشر قلوبنا، ويقينًا يملؤها، وتصديقًا بوعدك ووعد رسولك صلى الله عليه وسلم. اللهم اجعلنا من أوثق خلقك بك. وأفقر عبادك إليك، ولا تكلنا إلى أنفسنا ولا إلى قوّتنا ولا إلى أحد من خلقك طرفة عين ولا أقلّ من ذلك يا رب العالمين، اللهم متّعنا بما رزقتنا، وزدنا من فضلك وجودك يا حي يا قيوم، اللهم وما رزقتنا من رزق فاجعله عونًا لنا على طاعتك، ومقرّبًا لنا إلى مرضاتك ومتاعًا لنا إلى حين، اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا تَحُولُ بِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنْيَا، اللَّهُمَّ مَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا، وَأَبْصَارِنَا، وَقُوَّاتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. وآخِر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .اهـ